

أنوار كاشفة      سلسلة من يقول الناس إنني أنا؟      الحلقة الثامنة عشرة

قبل أن يكون إبراهيم أنا كائن

نرحب بك مستمعي العزيز في هذا اللقاء الجديد من برنامج أنوار كاشفة. نتابع في لقاء اليوم اليوم حديثنا عن حقيقة شخصية المخلص المسيح، وإن كان هو مجرد نبي كباقي الأنبياء أم شخصية مختلفة؟

وكنا قد تحدثنا عن عدة عجائب قام بها المسيح تؤكد حقيقة شخصيته الإلهية. كإقامته للعاذر من القبر، وشفائه للرجل المقعد، وللرجل الذي ولد أعمى، وإطعامه للجموع الغفيرة، وإسكاته للأمواج الصاخبة في البحر. وقد رافقت هذه العجائب تصريحات هامة للمسيح، تؤكد أنه كلمة الله الأزلي المتجسد، وابن الله الوحيد. كقوله: أنا هو القيامة والحياة، أنا هو نور العالم، أنا هو خبز الحياة. أنا هو الباب، أنا هو الراعي الصالح، أنا هو الطريق والحق والحياة. وأعلن المسيح أنه هو رب داود، بالرغم من أنه أتى من نسله.

وبدأنا في اللقاء الماضي التأمل بالحوار الذي جرى بين المسيح وبعض اليهود الذين آمنوا به. وإعلان المسيح لهم: أنكم إن لم تؤمنوا إنني أنا هو تموتون في خطاياكم. وعبارة أنا هو تشير إلى أن المسيح هو الرب المخلص. ثم أعلن لهم المسيح أنهم كعبيد للخطية عليهم أن يؤمنوا به لكي يصبحوا أحرارا. وعندما قالوا أنهم من نسل إبراهيم، كشف لهم المسيح أن إبليس هو أباهم. إن كون الإنسان من نسل معين أو من عائلة متدينة، لا يبدل من حقيقة كونه إنسانا خاطئاً وبحاجة إلى خلاص الله المقدم له عن طريق المخلص المسيح. ويسرنا أن نتابع اليوم هذا الحوار الهام بين المسيح واليهود.

ثم قال لهم المسيح: " وأما أنا فلأني أقول الحق لستم تؤمنون بي. من منكم يبكتني على خطية. فإن كنت أقول الحق فلماذا لستم تؤمنون بي. الذي من الله يسمع كلام الله. لذلك أنتم لستم تسمعون لأنكم لستم من الله." (بشارة يوحنا ٨: ٤٥-٤٧) على عكس إبليس الشيطان الذي يتكلم بالكذب دائما، وهو كذاب وأبو الكذاب، فإن المسيح يقول الحق. ولأنه يقول الحق فإن أولئك اليهود لم يريدوا أن يسمعوا له، لأنهم يتبعون الشيطان وينفذون مشيئته في فعل الشر. وهنا نجد المسيح يتحدى اليهود قائلا: من منكم يبكتني على خطية. أجل لا يستطيع أي إنسان أن يجد في المسيح خطيئة واحدة. حتى اليهود أعدائه والذين كانوا يتآمرون عليه لم يكن بإمكانهم أن يجدوا فيه خطأ واحدا.

فما هو سر هذا الأمر؟ أي كون المسيح شخصا بارا بلا خطيئة، ومختلفا عن باقي البشر جميعا. وللجواب نقول: إن الأمر يعود لكون المسيح هو كلمة الله الأزلي المتجسد، الذي حُبِلَ به من الروح القدس في أحشاء العذراء مريم. أي ولد من زرع غير بشري، وبلا خطيئة. ولذا فهو كان يحمل كإنسان كامل الطبيعتين الإلهية والبشرية. وبالرغم من أنه جرب كإنسان مثلنا من الخطيئة، لكنه انتصر عليها، وصار هو مثالنا الكامل. وهنا تساءل المسيح: أنه إذا كنت أقول الحق فلماذا لا تؤمنون بي؟ ثم أجاب عن تساؤله قائلا: أن الذي من الله لا بد له أن يسمع كلام الله. وبما أنكم أنتم لستم من الله فلماذا لا تسمعون لكلامي.

كان رد فعل اليهود على كلام المسيح أن قالوا له: " ألسنا نقول حسناً إنك سامري وبك شيطان. أجاب يسوع: أنا ليس بي شيطان لكني أكرم أبي وأنتم تهينونني. أنا لست أطلب مجدي. يوجد من يطلب ويدين." (بشارة يوحنا ٨: ٤٨-٥٠) كان اليهود في أيام المسيح يكرهون جيرانهم السامريين، وهم شعب خليط من بني إسرائيل والوثنيين. وكان عارا عندهم أن يتهم أحدهم أنه سامري. وبما أنهم يكرهون المسيح فقد اتهموه بأنه سامري وبه شيطان. لكن المسيح أجابهم أنه في كل ما يفعل إنما هو يكرم والده، أي الله الأب. أي على عكسهم هم الذين ينفذون مشيئة أبيهم الشيطان. وأنه في عمله هذا لا يطلب المجد لنفسه. لأن الله الأب هو الذي يمجده وهو الذي يدين.

ثم أضاف المسيح قائلا: " الحق الحق أقول لكم إن كان أحد يحفظ كلامي فلن يرى الموت إلى الأبد. فقال له اليهود: الآن علمنا أن بك شيطانا. قد مات إبراهيم والأنبياء وأنت تقول إن كان أحد يحفظ كلامي فلن يذوق الموت إلى الأبد." (يوحنا ٨: ٥١ و٥٢) هذه هي حقيقة هامة أعلنها المخلص المسيح هنا. أن من يحفظ كلامه أي يؤمن به إيمانا قلبيا صادقا، فسychia إلى الأبد. إذ يتحرر من عبودية الخطيئة وإبليس، وينال الغفران الكامل عن ذنوبه، وعطية الحياة الأبدية. كان رد فعل اليهود سلبيا، وكان واضحا أنهم لم يفهموا معنى كلام المسيح. فلقد كان المسيح يتحدث هنا عن الموت الروحي. إذ عندما يؤمن الإنسان به، يقيمه الله من موته الروحي، وينجوا بالتالي من الموت الأبدي.

ثم تساءل اليهود قائلين: " ألعك أعظم من أبينا إبراهيم الذي مات. والأنبياء ماتوا. من تجعل نفسك. أجاب يسوع: إن كنت أمجد نفسي فليس مجدي شيئا. أبي هو الذي يمجدني الذي تقولون أنتم أنه إلهكم. ولستم تعرفونه. وأما أنا فأعرفه. وإن قلت إنني لست أعرفه أكون مثلكم كاذبا. لكني أعرفه واحفظ قوله." (بشارة يوحنا ٨: ٥٣-٥٥) ألعك أعظم من أبينا إبراهيم الذي مات؟ لقد لمس اليهود، أن المسيح في كلامه يدعي أمورا تجعله أعظم من إبراهيم، وهذا أمر خطير بالنسبة لهم. فالمسيح ينسب لنفسه أمورا هي من اختصاص الله وحده، كغفران الخطايا، وعطية الحياة الأبدية.

لكن المسيح كونه كلمة الله الأزلي المتجسد، كان يتمتع حقا بهذه الصلاحيات، وهو فعلا أعظم من إبراهيم والأنبياء جميعا. ولهذا قال المسيح لليهود أنه إن كان يمجّد نفسه فليس مجده شيئا. بينما الحقيقة أن الله الآب هو الذي مجّده وأعطاه كل هذا السلطان. هذا الله الآب الذي يدّعي اليهود أنه إلههم، لكنهم لا يعرفونه. وهو في المقابل يعرفه حق المعرفة، لأنه يحفظ كلامه ويعلنه. وإلا لكان كاذبا مثلهم.

ثم تابع المسيح قائلا: " أبوكم إبراهيم تهلل بأن يرى يومي فرأى وفرح. فقال له اليهود ليس لك خمسون سنة بعد. أفرايت إبراهيم. قال لهم يسوع الحق الحق أقول كم قبل أن يكون إبراهيم أنا كائن." (بشارة يوحنا ٨: ٥٦-٥٨) هنا كشف المسيح لليهود وبصراحة كاملة عن حقيقة شخصيته الإلهية. فقال لهم أن أباهم إبراهيم الذي ينسبون أنفسهم إليه، هو نفسه كان ينظر بأمل إلى يوم المسيح البهيج، وفعلا رآه وفرح به. فمتى رأى إبراهيم يوم المسيح؟

يتفق العديد من المفسرين أن إبراهيم رأى يوم المسيح عندما صعد إلى جبل المريا ليقدم ابنه اسحق ذبيحة كما أمره الله. وعندها رأى بعين الإيمان المسيح وقد رُفِعَ على الصليب ذبيحة للتكفير عن البشر الخاطئة، ثم قام غالبا منتصرا. أي رأى بعين الإيمان المسيح، وقد أخذ مكان الخروف الذي هياه الله له عوضا عن ابنه اسحق. وعلم أن الله قد دبّر بواسطة ذبيحة المسيح، الخلاص للبشر أجمعين. وعندها فرح وتهلل وشكر الله على محبته العظيمة.

لكن اليهود لم يفهموا كالعادة المعنى الروحي العميق لكلام المسيح، فاحتجوا عليه قائلين ليس لك خمسون سنة بعد أفرايت إبراهيم؟ مع أن المسيح لم يقل أنه رأى إبراهيم، بل العكس، أي أن إبراهيم رآه. وعندها أجابهم المسيح وأعلن لهم أهم الحقائق. وهي أنه قبل أن يكون إبراهيم أنا كائن. وهذا لا يعني أن المسيح كان موجودا قبل إبراهيم فحسب، بل أنه كان كائنا، أي مقيما مع الله الآب منذ الأزل. وبذلك أعلن المسيح لاهوته أو طبيعته الإلهية. فتعبير أنا كائن يعني أنا هو الكائن. عند تصريح المسيح الهام هذا، رفع اليهود الحجارة ليرجموا المسيح باعتبار أنه جدّف بإدعائه الألوهية. لكن المسيح اختفى من وسطهم ومضى.

أمام هذه الحقائق الواضحة مستمعي الكريم، ما هو موقفك من شخص الرب المخلص يسوع المسيح؟ هل تؤمن به؟ أم ترفضه كما رفضه أولئك اليهود في أيامه؟